



بقلم : المحامي زكي كمال

## فليحول العالم رمضان الى منظومة أخلاقية دائمة

أمام تصاعد الأزمات والخلافات، اقتصادية كانت ام عسكرية ام سياسية في مناطق واسعة في العالم، امتدت من الشرق الأوسط بما فيه من حروب في اليمن وسوريا، وتوتر يُنْذِرُ بالانفجار بين إيران وإسرائيل، وخلافات حامية بين مصر والسودان واثيوبيا حول سد النهضة ومياه النيل، وتوتر دائم يتكرر بين روسيا وأوكرانيا، وحرب اقتصادية بين الصين وأمريكا، ووسط حالة من العنف السياسي والجناي المستشري قطرياً عامة ومحلية خاصة، نجد أنفسنا في المجتمع العربي والبلاد والعالم امام واقع جديد لم يكن مفاجئاً او غير متوقع، بل ان معالمة بأبعاده المحلية والدولية كانت واضحة وجلية وأخذت بالتشكل منذ سنوات، لتزداد وتيرة تبلورها في السنوات الأخيرة، واقع يعني أننا امام حالة تعكس أزمة خطيرة في المنظومات القيمية المختلفة والمتعددة التي تحكم العلاقات بين البشر، وتشمل العلاقات بين الدول والشعوب والجماعات والأفراد من مختلف الشعوب والأعراق وفي مختلف الاماكن.

### " أمر ليس جديدا "

الأمر ليس بجديد فالعالم وعلى مدار القرون والأزمان شهد أزمات سياسية وقيمية تصبح فيها القوانين والقيم المعتادة للسياسة غير قابلة للتطبيق ولا تسير الأعمال كالمعتاد، وعندها يحتاج السياسيون والأحزاب السياسية وممثلو الحكومة والمنتخبون والناشطون الاجتماعيون والأكاديميون الباحثون وغيرهم الى مجموعة مختلفة من القيم والمهارات وتنشأ لديهم مسؤوليات مختلفة خلال الأزمة، لكن الجديد والخطر في الأمر أن الأزمة القيمية بل وانعدام الضوابط الواضحة السياسية والاجتماعية والإنسانية أصبح السمة السائدة والجامعة، وقوامها تعظيم وتضخيم العداوات والنزاعات واتباع القوة المفرطة والاهتمام بالذات والمصلحة الفردية والسعي الى " إنجازات آنية وسريعة بل وفورية " احيانا تعكسها بأبهى صورها " معركة ما بين المارك " بين إسرائيل وايران واحتدام صراع النفوذ والاقتصاد بين أمريكا وبين روسيا والصين من جهة أخرى، وازدياد محاولات الدول التدخل في حياة دول أخرى لأسباب لا علاقة لها بالسياسة او العلاقات الدولية كما تنعكس محليا بارتفاع وتيرة العنف والقتل لأتفه الأسباب بل ودون أسباب اللهم الرغبة " الآنية بأخذ الثأر وتلقين الطرف الآخر درساً لا ينساه لإرضاء مشاعر انتقام وغضب عارمة وبشكل فوري وسريع " .

لم يعد خافياً أن الأزمة القيمية التي يعيشها العالم ويعيشها مجتمعنا مردها العمل وفق مبدأ الهيمنة والقيادة، الذي كان لسنوات أبرز معالم النظام العالمي والمحلي فتصارعت

عليهما الدول والقوى العظمى المتحكمة في مجريات الأحداث العالمية والقطرية والمحلية، علما أن صفات هذا المبدأ هي تقديس وتكريس القوة واستخدامها وعدم الاهتمام بالنتائج وتجاهل الأضرار التي تلحق بالغير باعتبار انه يستحق ما واجهه من مصير بل وعدم الاكتراث بما يحصل للغير طالما كان هذا يخدم مصلحة الطرف القوي ما يؤكد إن عالمنا المعاصر عاكف على نفسه قد اكتفى معظم الخلق بشؤونهم وتوارى الاهتمام بضعفاء الناس خلف حجج واهية، ما يقود الى النقاش يحتدم حول الأمور الكفيلة والشروط الأساسية التي يجب ان تتوفر ليشهد العالم ونحن في المجتمع العربي في البلاد جزءاً لا يتجزأ منه، تغييرا في منظومة القيم والسيطرة والتحكم.

### " أسئلة وتساؤلات كثيرة "

أسئلة وتساؤلات كثيرة تثار بشكل دائم وازدادت حدة في العام الأخير وعلى ضوء أزمة الكورونا لكنها تتعاظم في الأيام الأخيرة، بكل ما تحمله من علامات التوتر والقلق والخوف من استفحال يصل حد فقدان السيطرة سواء كان ذلك في مجال الخلافات والنزاعات الدولية ( إسرائيل وايران مثلا او مصر واثيوبيا) التي تهدد بفقدان الامن والأمان او وبوتيرة اقوى على صعيد احداث القتل والعنف ومظاهر الإجرام التي يعانها مجتمعنا العربي والتي تؤكد فقدان الأمن والأمان الشخصي وسيطرة الخوف والرعب وفوضى السلاح والرصاص والعنف والقتل بدلا من لغة الحوار والتسامح والصبر وغياب التكافل الاجتماعي والهيم الجمعي ليحل محله الاهتمام بالذات .

ما سبق يتزامن مع الايام الاولى من شهر رمضان الفضيل وبالتالي يدفع الى الحديث عن المنظومة القيمية والأخلاقية والإنسانية الواضحة التي يمثلها شهر رمضان بأبعاده ومعانيه الواسعة والجمعية التي تجعل من هذا الشهر عباداته وفرائضه وقيمه وحقيقته الإنسانية الواسعة والعميقة ثورة على مألوف العادات، وتأهيل للإنسان ليوافق نفسه ويكون حراً من أن تتحكم فيه عادة لا يستطيع الفكك منها (مراجعة الذات ومحاسبتها والبعد بتغيير الذات اولا)، فرمضان هو منظومة قيمية وأخلاقية كان من الأولى ان تسود العالم طيلة العام قوامها انه شهر صوم وعبادة لكن الصوم الذي نريده ان يسود العالم كمنظومة تحكم تصرفاته وسلوكه هو ليس الصوم جوعاً أو عطشاً، بل هو إمساك عن الأهواء، وسيطرة على الانفعالات ( وقف الإساءات المتبادلة بين الناس ولأتفه الاسباب)، وتوجيه للحاجات ( استثمار في حياة الإنسان ورفاهيته والتعليم والعمل والتجارة والتطور بدلا من شراء الأسلحة والمفرقات وغيرها من أدوات الضرر والخراب والعنف)، فلا فحش في القول ( استمرار تراشق التهم بين الأحزاب العربية رغم انتهاء الانتخابات واستمرار التهجئات المتبادلة بين الدول في العالم والمنطقة)، ولا غضب على أحد، بل سيطرة على النفس، ومبادلة الإساءة بالحسنة، ومواجهة العدوان بالعفو (وقف الشجارات المتكررة في قرانا التي يكون معظمها بمثابة رد على الإساءة بالإساءة)، ولذا فإن الصيام الحقيقي هو صيام عن الرذائل الخلقية اما منظومته القيمية فهي مدرسة يتعلم فيها الإنسان وتتعلم فيه الدول الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، وقوة الإرادة، وجهاد النفس،

### " العيش بسلام ووثام "

ما يحتاجه العالم وما نحتاجه نحن في هذه الأيام هو قيم رمضان الداعية الى تكاتف الجهود لنشر وتعزيز قيم المحبة والتسامح في مواجهة ظواهر التعصب والكراهية والمغالاة في الخصام والغلو في التشفي والانتقام، لكن حاجتنا أكثر بل انها ملحة إلى أهل الحكمة والاعتدال القادرين على احتواء الخلافات وتلطيف الأجواء وإعلاء قيمة العقل ونبذ العنف والتوظيف السياسي العدائي للطائفية والدين والمذهب والحذر من محاولة الحاق الشر والأذى بالغير افراداً او دولاً، نحو خلق مجتمعات تتخلص من القيود التي تشده إلى الماضي على حساب الحاضر والمستقبل، تكون محصنة من امراض الكراهية والتعصب،

مؤهلة للتعايش مع نفسها ومع غيرها في العالم بسلام ووثام، تنتهج نهجا لحل الخلافات وصياغة العلاقات يقوم على الرأي والرأي الآخر وحرية المناقشة والفكر، وعلى حديث اللسان بدلا من استئلال الأسنان، وعلى خطاب سياسي جديد محلياً، متصالح مع العصر ومنفتح على الآخر، يحتضن الإنسان لأنه مخلوق مكرم من قبل خالقه، وعلى خطاب ديني مستنير يساهم في نهضة الدول والمجتمعات ويحمي من العنف والفكر المتطرف والطائفية والمذهبية واغتنام شهر رمضان لإجراء المراجعة الشاملة للأوضاع المجتمعية، وذلك بتفعيل الحوار بين كافة مكونات وأطراف المجتمع وصولاً إلى إخضاع كافة المنظومات المجتمعية إلى عمليتي المراجعة والتقويم، بهدف تبين مواطن الخلل وتصحيحها، مصداقاً لقوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ "، انطلاقاً من ان لرمضان قيمة التي تعطي الفرد والجماعة إمكانية صناعة المعاملة الصادقة والقدرة على البناء النفسي وتطوير مسيرة تهذيب النفس من خلال التقدم والتحسن والتعامل مع البشر بصورة راقية، ودعم النفس للتحول من عامل ردة فعل غريزية وعدائية ومتسعة احياناً وخطيرة ومتهورة احيانا أخرى إلى فعل بصورة إيجابية تحسن مصير الإنسان داخلاً وخارجاً.

### " اعادة بناء النفوس "

قيم رمضان كفيلة أن تُعيد بناء النفوس، وان تجعل علاقات الدول أكثر تفاهماً واقل تصادماً وان تجعل الدول كافة أكثر قبولاً للأقليات وللآخر فيها وان تجعل هذه الأقليات الأكثر تفهماً لطبيعة وقوانين وتعاليم الدول المضيفة لهم وان يبتعدوا عن انتهاج القوة والعنف والتقوقع، كما انها السبيل الى إنهاء الخلافات تفاهماً ناهيك عن حقن الدماء وصون الممتلكات وهو ما دعا اليه الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال في حجة الوداع: " إن دماءكم واموالكم واعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذه في بلدكم هذا في شهركم هذا " .

رمضان منظومة أخلاقية متكاملة تدعو الى السلم وتسعى الى التعاون والتكافل والتعاقد، وتحث على فعل الخير والدعوة اليه ونبذ العنف والتفرقة والدعوة الى الوحدة والتكاتف والى صون أو اصر القرباة بين الناس والى تكريس قيمة الإنسان كقيمة عليا دينية وأخلاقية تؤكد حكام رمضان الفضيل التي تفرض الصوم وفي نفس الوقت تفرض صون الروح والحفاظ على الإنسان والحياة والصحة عبر اعتبار الصحة وحياة الانسان عاملاً أساسياً وقيمة عليا تعتبر سبباً مشروعاً للإفطار، خاصة اذا خشي المرء ان يؤدي الصيام إلى تفاقم المرض، أو تأخير علاجه ، أو إلحاق الضرر بشيء من البدن، فله عذر في الإفطار لأن الالتزام الأكبر هو الحفاظ على نفسه من الهلاك في أفضل إشارة الى ان حياة الانسان هي القيمة العليا..

ختاماً أقول: في رمضان معان وعبر فهل نريد فعلاً الاستفادة منها عبر جعلها منظومة تصرف ونهج حياة دائم.